

ليكن لي أمانة

لم تكن لي أمانة في ذلك الوقت الا السكنى في ذلك ، بيت
(المسكون) .. ولم يكن ذلك حيا منى في الجن والأرواح التي كانوا
يدعون أنها تسكنه .. ولا كان عن رغبة في مشاكتها ومعاكستها ..
بل كان كل ما يستهوي فيه ، هو شجرة التوت العالية التي تطل
بفروعها المورقة من الحديقة الصامتة المتوحشة .

كنت وقتئذ في الثانية عشرة .. وكنا نمر على الدار المسكونة
كل صباح عند ذهابنا الى المدرسة .. ولم يكن يلد لنا شيء قادر أن نمد
أعناقنا الصغيرة من خلال قضبان السور الحديدى لنستطيع ما وراءه من
أشجار مكاثفة متعانقة .

وكانت الحديقة تبدو لنا أنها بحر خضم لا تكاد تبلغ العين مداه ..
وكانت عقولنا الصغيرة تتخيلها مليئة بالسحر والأسرار .

وما زلت أذكر تلك الأيام التي كنا نستيقظ فيها وضوء الشمس
لم يظهر بعد . فنسلك من دورنا خفية لنذهب الى الدار المسكونة قبل

أن يستيقظ حارسها الأسود العجوز .. فتسلق السور وتقطف أوراق الثوت الذى كنا نحتاج اليه لتغذية دود القز الذى كانت تستهويننا نريته . وكان بيتنا وبين الحارس عم محمد ، وهرلوتة ، ما صنع الحداد ، وانى لأعجب الآن ماذا كان يود ذلك الأبهة العجوز أن يصنع بورق الثوت ، ولأنى أمر كان يحترمه عليا ويحترى وراعنا بهرلوتة صاحبنا مهددا عندما يضبطنا متلبسين بجريمة الشعلقة على السور .

وتطوّر الأمر من رغبتنا فى قطف ورق الثوت الى رغبتنا فى معاكسة عم محمد واستثارة غضبه .. والعبث به ، والسخرية منه . والواقع أننا قد برعنا فى هذا الأمر وتفننا فيه . وانى لأذكر ذلك اليوم الذى وعلدنا فيه النية على أن نفتحم الحديقة .. وترتع فيها كما نشاء .. ونستكشف خباياها ونستطلع أسرارها .. وذهبنا الى الدار ومع كل منا هرلوتة وقد صممنا على ألا نفر من عم محمد .. بل نواجهه مواجهة البند للند .. ونطلب اليه أن يسمح لنا بالدخول ، فإن رضى كان بها ، وإن أبى فهو الجانى على نفسه .. وهو المسئول عما سيحدث له نتيجة العلاقة الساخنة التى صممنا على أن نعطيها له .

وعندما وصلنا الى الدار لم نجد صاحبا على بابها .. ووجدنا الباب غير مغلق .. ونادينا فلم يجبنا أحد .. وحشينا أن تسللنا أن يكون الرجل قد وضع لنا كميناً ، فرددنا برهة ، ولكن أحدنا وهو محمود (أدى بولس) (هكذا كان يسمى نفسه تشبيها بأحد أبطال السينما) كان أكثرنا جرأة وأشدنا عفونة .. فافتحم الباب بخطوات ثابتة .. واختفى داخل الحديقة .

وبعد برهة قصيرة سمعنا منه صفارة طويلة ورأيناها قد أقبلت فى تودده وقد وضع يديه فى جيوبه كأنه يسير فى حديقة الخاصة .. ثم أشار اليها بكبرياء أنه يمكننا الدخول .

ولكننا ترددنا وسألناه في أصوات هامة :

- وعلم محمد ؟

- لقد سمعته .. وكفى لقد المؤمنين القتال .

ثم علمنا منه أنه وجدته منهمكا في الصلاة في حجرته .. فما كان منه إلا أن أطلق الباب عليه بالمفتاح ووضع المفتاح في جيبه ، وترك الرجل يصلي في هدوء ما شاء له أن يصلي .

وكان يوما مشهودا من الأيام التي لا يحدو بمثلها الدهر ، أو هكذا هو على الأقل ما كنا نظن وقتئذ .

هذه الحديقة الساحرة المعجبة التي كنا نشي لمجرد أن نمد فيها رؤوسنا من بين قضبان السور الحديدى .. قد أصبحت اليوم ملكا خاصا لنا لا يشارك فيها أحد .. وعلم محمد عدونا اللئيم .. قد أصبح حبيبا مع هراوته .. لا يملك كلاهما لنا ضرا ولا أذى .

وكان الوقت ريعا ، وكل ما في الحديقة ملون مزدهر وأشجار المشمش قد رسمت بالزهور البيضاء كأنها قصور العاس ، وأزهار البرتقال قد تفتحت وفاح منها العير وانتشر الشذى ، والنباتات كلها تكاد تنضج من فرط الحياة .

وانطلقنا في أنحاء الحديقة .. وتسلقنا أشجارها ، ونقطع الزهور والثمار ، وأغرقنا الحديقة بالنياه ، وعشنا ما شأمت لنا طفولتنا أن نعبث ونمرح ، ومن لنا كل أنوار البطولة التي رأيناها على الشاشة البيضاء من (طرزان) و (توم ميكنس) .

وأخيرا .. وبعد أن أصابنا التعب .. وبعد أن استنفدنا كل ما نملك من قوى في الجري والقفز .. وبعد أن انتهت كل ما لدينا من وسائل

اللعب .. وبعد أن قلنا أعلى الحديقة أسفلها ، وأسفلها عاليها ، وشققنا
في أرضها (حوض البحر الأبيض) و (نهر النيل) .. ورفضنا فيها (جبالا
الهملايا) ، و (هضبة التبت) ، وصنعنا من أفرع الشجر سفنا ومعاير
وأكواما وقصورا .. ولم نترك زهرة واحدة باقية على فروعها ، ولا طيرا
واحدا هادئا في وكرة .. أخيرا .. وبعد كل هذا فكرنا في العودة إلى
دورنا .

وهنا وجدنا أنفسنا في مأذق حرج . ماذا نصنع بهم محمد ؟ لم
يكن أمامنا إلا أحد أمرين : إما أن نتركه في سجنه فيموت جوعا ..
وإما أن نفتح له فيمتنا ضربا .

ولمّا نحن خيارى .. رأينا (أدى بولو) يتركنا ويهدو إلى آخر
الحديقة ثم يعود ومعه حبل طويل ورأيناه يخرج المفتاح من جيبه فيربطه
في طرف الحبل ، ويعطيه لأحدنا ويأمره بأن يمسك به جيدا .. ثم يسير
هو بالطرف الآخر فيذهب إلى حجرة الرجل .
وطرق الباب بيده طرفة خفيفة ونادى :

- نعم محمد .

وهنا سمعنا صياحا وطحيجا كأن في الحجرة ثورا هائجا وعلت
من الحجرة ألفاظ الساب .. ووصلت إلى آذاننا كلمات التهديد
والوعيد ، فشرنا بالخروج والخوف .. وانتهر (أدى بولو) لحظة صمت
من الرجل فصاح به :

- اسمع يا محمد .. إذا كنت تنوى أن تستمر على هذا
الهيجان والحمق فلن نكون مسئولين إذا تركناك تموت جوعا في
حجرتك كالكلب الغنى .. وإذا كنت تريد الحياة فاسمع إلى .

وسكن الرجل وأصغى .. فاستمر صاحبنا في الحديث :

- سأعطيك المفتاح من أسفل الباب .. ولكن ليس مباشرة حتى لا تفتح الباب المفتاح وتلاحقنا بهرأوتك ، بل سأعطيك طرف حبل يربط المفتاح في آخره .. فما عليك لكي تأخذ المفتاح إلا أن تستمر في جذب الحبل .. حتى يصل اليك المفتاح .

ثم مَدَّ يده فأدخل طرف الحبل من أسفل الباب واتجهنا الى باب الحديقة ومعنا الحبل الذي ربط به المفتاح وأخذ الرجل يجذب الحبل من ناحية ، ونحن من ناحية فما وصلنا الى الباب حتى كان الحبل قد امتد بطوله بين الحجرة وباب الحديقة ، فألقينا المفتاح ، وولينا الفرار .
وعندنا الى دورنا .. كأننا لم نتركب أمرا إذا ، ولا فعلا نكرا ، ونسللت من الباب واتجهت رأسا الى الحمام حتى أزيل ما علق بي من طين وأوساخ .

وذهبت الى حجرة الأكل ، ودار الحديث بين أمي وأمي عن أن البيت الذي نقتطعه لم يعد صالحا لنا ، وأنه يفكر في الانتقال الى بيت أوسع ، وأنه لا يشرى ماذا يصنعنا من أن نستأجر البيت الذي يدعى الناس أنه (مسكون) فليس هناك في الناحية بيت في مثل فخامت ولا ضالة أجره .

وكذبت أفقر من مكاني لفرط الفرح وصححت بأبي :

- أقسم لك أنه ليس مسكونا ، وأن الأمر لا يزيد على اشاعة كاذبة .

وشعرت بيد أمي تمتد من خلف المصطبة ، فتقرضني فرصة لاذعة في اللهايب ، وتنتهي زاحرة نائرة :

- لقد قلت لك ألا تدخل فيما لا يعينك .. كل وانت ساكت .
ثم وجهت الحديث الى أمي ، وشرر الغضب بتظاهر من عينيها :
- لم أر في حياتي قط من هو أسخف منك الا ولدك ولا من
ولدك الا أباه .. أتريد مني أن أقطن في هذا البيت الموحش المخيف ،
ان السكس في المقابر خير عندي وأفضل !

ولكني أمي - بارك الله فيه - استطاع أن يمنع المرأة العبيدة بأن
تذهب لتري البيت ، فقد تغير رأيها عندما تراه .

ولو أخبروني وقتل أنني قد صرت اميراطورا للعالم لما كانت
فرحتي بأشد منها عند ما عادت أمي وأخبرتنا أنها قد وافقت على
الانتقال الى البيت (المسكون) .

وكان فرحي في الواقع قد بلغ حد الجنون ، حتى لقد رحبت
أرفض في الحجرات من فرط الطرب .. من كان يقطن هذا ؟

هذه الحديقة الواسعة ستصبح حديقةا وشجرة التوت ستصبح
كلها ملكا لي .. وسأدخل حصة الناحية ، يأخذون من ورفها ما
شاهوا .. وهم آمنون مطمئنون من شر عم محمد .

ولم يكن يخطر على بالي عم محمد حتى قفوت من مكاني كأن
بي مسا من جنون ، وصحبت أناطاب نفسي :

- عم محمد ! (وقعت والا الهوى رمالك) ، من كان يتخيل أن
هذا الحيوان الأسود العجوز ، الذي طالما نالني من هراوته الشيء
الكثير .. سيصبح تحت رحمتي .. لقد أصبحت من الآن سيده ، سأأمر
منه لكل أطفال الناحية .

وانتقلنا الى دارنا الجديد ، وكان فرحنا بها لا يقدر ، فقد كانت
الدار فاخرة حقاً .. وكانت بها كل وسائل الراحة والرفاهية .. وكان
من السخف أن نترك مثل هذه الدار طوال تلك المدة الطويلة . لا شيء
الا لمجرد اشاعات كاذبة أنها مسكونة بالجن والأرواح .

وكان يبدو على عم محمد أنه لم يكن مرتاحا لسكانا فقد
أخرجناه من مكنته وأزعجناه في مأتمه ، وحرمانه من هدوئه الذي اعتاده
وسط الدار القسيحة ، الخاوية على عروشها .

وأزعجه أكثر من ذلك وحز في نفسه أن هؤلاء الصبية الذين كانوا
يخشون جانيه ، ويفزعون من رؤيته .. قد باتوا يأمرونه فيلعبن للأمر ،
ويزجرونه ليزدجر ... وفقد سلطانه عليهم وعلى الدار .. فاستباحوا
حماها .. وانتهكوا حرمتها .

ومرت الأيام ونحن نرتع في الدار ونمرح ، حتى حدثت ذات ليلة
ما روعنا وملاً نفوسنا فرحنا .

سمعنا صوت أنين بدأ خافتا ، ثم أخذ يعلو رويدا .. رويدا ، ثم
انقطع فجأة .. وفي الصباح نقب أبي في أنحاء الدار عله يثر على
مصدر الأنين ، فقد يكون قطعة مريضة أو كلبا جريحا ، ولكنه لم يثر
على شيء .

وفي الليلة التالية سمعنا الأنين نفسه ، وزاد عليه بعض الصراخ
الذي جعلنا نكش في أعطينا ، وجعلت أمي تقسم أن نترك الدار عندما
تشرق الشمس .

وفي الصباح أرسل أبي في طلب عم محمد وسأله عن سر ذلك
الأنين والصراخ ، فأطرق الرجل برهة ثم أجاب :

- انه صوت الفتاة السجينة .

وسأله في دهشة :

- الفتاة السجينة ؟ هنا في الدار فتاة سجينة ؟

وهو الرجل رأسه ببساطة علامة الموافقة ، فصاح به أبي في

سخرية :

- ومن الذي أجبرها على أن تظل سجينة حتى الآن ؟ ولم

لا تنطلق الى حيث تشاء ؟ وفي أي حجرة تنزل هذه السجينة المحققة ؟

- انها في البدروم يا سيدي .. وقد سمعت قصتها من أبي الذي

سمعها من جدي .. لقد قال لي هذه الدار كان يملكها في غابر الزمان

أمير كريم المحند .. عريق الحبب وسيم الطلعة ، متين البنان ، وكان

يعيش في الدار مع أمه وأخته .. وكانت أمه تود أن تزوج ابنتها بأحدى

الأميرات ولم يكن لدى الأمير اعتراض على ذلك . فقد كان يخالي

القلب ، ومسارت الأمور على خير حال .. حتى حدث ذات مرة أن

صدمت عربة الأمير فتاة فقيرة في عرض الطريق ، فخرجت الفتاة ورق

الأمير لحالها فحملها الى بيتها وأحضر لها طيبا ودلوم على زيارتها

والعناية بها .

وبرأت الفتاة من جرحها .. ولكنها وجدت نفسها قد أصيبت

بجرح آخر أعمق أثرا ، كان من العسير عليها شفاؤه إذ كان جرحا في

القلب لا في الجسد ، فقد أحببت الفتاة الأمير حبا يائسا ووجدت نفسها

تتخبط في عوى لا أمل فيه .

ووجدت الفتاة أن الأمير لم يكف عن زيارتها حتى بعد برئها ،

وأن عطفه قد ازداد عن ذي قبل .. وأخيرا اتضح للفتاة ان الأمير قد

بان هو الآخر حبا مولعا .

واندفع الأمير في تيار الهوى فتزوج الفتاة وحملها الى الدار ..
وقدمها الى أخيه . فأصابهما الدهول ، ولكنهما لمالكنا نفسيهما ،
وتصنعا الترحيب بها .

وأحق الأم أن يتزوج ابنها مثل هذه الفتاة الفتيمة .. ولم ترض
الفتاتان وأمهما أن تصبح الفتاة الوضيعة الأصل ربة الدار .. فعقدن الية
على التخلص منها بأي حال .

وفي ذات يوم غاب الأمير عن الدار في رحلة تستغرق بضعة أيام ،
فاستدرجن الفتاة الى القبور بالهدوم ودفعن بها الى داخله وتركنها
حيصة فيه .

وظلت الفتاة في القبو مذهولة مشدودة ، ثم بدأ الجوع يمزق
أحشاءها ، فأعدت تسجد وتستغيث ، وغلا آلتها وصياحها حتى بلغ
منها الصوت وارتجت جنة هامة .

وعاد الأمير من رحلته فأنبأوه أنها فرت هاربة .. فجن الرجل ..
وترك البيت هائما .. هذه هي القصة يا سيدي .. ومن يومها والآن
والصباح لا ينقطعان أبدا من القبو .

وانتهى حديث عم محمد وبدأ علينا القارئ واستقر الرأي على أن
تغادر الدار بسحرد العتور على دار أخرى .

واجمعت بأصدقائي من الصبية ، فقصصت عليهم القبا ،
فأحزنهم أن يحرموا مرة ثانية من الحديقة .. وأن يعود (عم محمد) الى
مطاردتهم بهراوته .

واتصرف الجميع .. ولكن محمود أو (أدى بولو) لم يتصرف ..
ورأيه يقترب مني ويهمس لي أدنى أنه يخشى أن يكون في الأمر دسيسة

من عم محمد يراد بها اخراجنا من البيت .. ثم اتفق معي على أن نسلل
ليلاً لمراقبة عم محمد والتفينا في الليل واحياناً خلف شجرة أمام حجرة
عم محمد وأخذنا نتنظر .

ولم تمض برهة قصيرة .. حتى رأينا الرجل قد خرج من حجرته
بعبه ويساره .. ثم بدأ يخرج ذلك الأنين والصراخ الذي كان يملؤنا
فرعاً وعلعاً .

وعاد الرجل الى الحجرة ، وطلب منى صاحبي ألا نعبير أحداً
بما يفعله عجوز النحاس .. وأن أقالبه في الليلة التالية ، واتفق معي على
القبور الذي سيقوم به .

وفي الليلة التالية سبقا الرجل الى القبور ، وانتظرناه هناك قابعين
في الظلمة ، وعندما سمعنا وقع أقدامه تقترب بدأ صاحبي يصدر من
فيه أنينا يشبه ذلك الذي يصدره العجوز ، فوقف مكانه متمسكاً لا حراك
به وقد عقد الفروع لسانه ، وبدأت أنا أتكلم في صوت خشن مقلداً
صوت الرجال :

- ماذا يبكيك يا فانتى ؟

ورد صاحبي مقلداً صوت الغناة :

- لقد سجدوني في القبر ، وتركوني بلا طعام ، وأشعر بالجوع
يلهب أحشائي .

- اطمئني يا حبيبي .. فاني سأحضر لك طعاماً شهياً ..
سأحضر لك لحمة رأس أسود عجوز ، ولكنها بلا مخ .. لأن صاحبها
أحمق شرير .

ولم يكمل صاحبي حديثه ، فقد سمعنا عم محمد يصرخ صرخة
مدوية ، ورأيناه يولي الأدبار كأن به مساً من شيطان رجيم .

وفي الصباح لم نر لعم محمد أثراً في حجرته .. فقد فر من
البيت .. ولم نعد بعد ذلك نسمع أنين الليل وعويله ، ولم يعد أحد
يدعي بعد ذلك أن البيت مسكون .. اللهم إلا رجلاً واحداً .. كان يؤمن
في قرارة نفسه أن البيت مسكون حقاً .. ولم يثب يجر أن يقترب منه
قط . وذلك هو عم محمد .
